

تاريخ القبول: 2024/10/17

تاريخ الإرسال: 2024/06/17

تاريخ النشر: 2024/10/30

أَسْئَلَةُ الْهَوِيَّةِ فِي رِوَايَةِ "نُومِيدِيَا" لِلرَّوَايِ طَارِق بَكَّارِي Identity questions in tarik bakari's novel «numidia»

بلقوت محمد¹جامعة عباس لغرور (الجزائر)، mohamed.belgout@gmail.com¹

الملخص:

رواية نوميديا لطارق بكّاري هي واحدة من بين أهم النصوص الروائية المعاصرة التي عالجت موضوع الهوية في المغرب العربي، من خلال بحثها لعدد القضايا الثقافية المتصلة بماضي، حاضر، ومستقبل إنسان الشمال الإفريقي. وقد حاولنا في هذه القراءة النقدية؛ استنتاج نصّ الرواية بغية الكشف عن موقف الروائي من قضية الهوية في المغرب العربي، وذلك بمعالجة بعض النقاط النقاط الأساسية التي تتمحور حولها الأسئلة الكبرى في النصّ، تاريخية كانت أو لغوية، أو غير ذلك.

الكلمات المفتاحية: الهوية، السرد، المغرب العربي، نوميديا، طارق بكاري.

Abstract:

The novel of «Numidia» is one of the most important contemporary narrative texte, that dealt with identity subject in the arabian maghreb.

And we tried in this critical reading examining the novel to detect the author's opinion about identity issue in arabian maghreb, by handling some of the axes that big questions revolve around it in the text.

Keywords: : Identity, Narrative, Arabian Maghreb, Numidia, Tarik bakari.

المؤلف المرسل: بلقوت محمد، MOHAMED.BELGOUT@GMAIL.COM

1. مقدمة:

لا مراء من القول بأن قضية الهوية قد غدت اليوم واحدة من بين أكثر القضايا استهلاكا في الدراسات الإنسانية، خاصة تلك التي تهتمّ بالجوانب الاجتماعية والثقافية، ومرد ذلك في الأساس ما يشهده العالم اليوم من تناقف، وانفتاح لا مسبوق على ثقافة الآخر بفعل العديد من المؤثرات؛ أبرزها وسائل الاتصال والإعلام التي فتحت أبواب التواصل على مصراعيها، بحيث لم تعد هناك حدود كثيرة تفصل بين الجماعات البشرية التي أضحت تتجه نحو الذوبان في نمط ثقافي واحد؛ هو نمط الثقافة المنتمية للجماعة السائدة والمتسيّدة في أغلب الممارسات الحياتية.

هذا التأثير الكبير والتهافت على ثقافة الآخر المهيمن بعث الخوف في نفوس الجماعات الأخرى المتأخرة عن الركب من ضياع مقومات ثقافتها وهويتها التي تميّزها عن غيرها، ونحن نقصد بالهوية هنا "نسق المعايير التي يعرف بها الفرد ويعرف، وينسحب ذلك على الجماعة والمجتمع والثقافة"¹، فهذه الهوية أضحت تعاني في كثير من القوميات من رهاب التلاشي والاندثار، ذلك بأن كثيرا من مقوماتها آخذ في الزوال، أو التغيّر في أحسن الأحوال، والتشبه بالنموذج الغربي المنفوق.

في الشمال الإفريقي أيضا وجود لإشكالية هويّانية هي وليدة التنوع والتعدّد الثقافي الموجود في هذا المجال الجغرافي الواسع، والذي شهد عديد الأحداث التاريخية التي راكمت له مجموعة من المكونات الثقافية تكاد تغيب العناصر الأمازيغية والتي يفترض وأنها الأصل، وفي كل مرة يُعاد بعث هذه الإشكالية بتساؤلاتها المختلفة في المحافل والمناسبات بشكل خاص، مرفقة بجملّة من المطالب

التي من شأنها أن تعيد للثقافة الأمازيغية مكانتها كبنية أساسية في التكوين الثقافي للمغرب العربي.

غير أن قضية الهوية الأمازيغية لسكان المغرب العربي كثيرا ما نُوقشت في فضاءات عامة بعيدة كل البعد عن العقلانية في الطرح والشرح معا، ميّزها تعصّب مفرد ومقبت أخرجها عن نطاقها الثقافي لتتحول إلى ممارسة سياسية، ونزعة انفصالية تسعى إلى الفرقة أكثر من سعيها إلى الجمع.

والحقيقة أن هذا الانحراف بقضية الهوية في المغرب العربي عن مسارها الثقافي، والأحداث التي رافقت ذلك في بعض دوله حين طُرحت القضية في مناسبات ماضية، هو الذي أدى بأصحاب الاختصاص إلى الإحجام بشكل شبه كامل عن الخوض فيها مخافة أن تأخذ أقاويلهم تأويلات أخرى، وأن تستثمرها بعض الجهات لتحقيق مآربها الخاصة، فانهضت القضية لدى أوساط العامة، ولم يُعن بها أحد من الخاصة إلا القلة القليلة منهم، وكل ذلك فوّت علينا تأسيس حوار ثقافي تكون له صفة العلمية والرصانة.

ومع ذلك فإن غياب طبقة النخبة عن الإدلاء بدلوها في أزمة الهوية في المغرب العربي قديما لم يكن غيابا كليّا، فبين الفينة والأخرى كنا نشهد على قيام دراسات ونصوص إبداعية مغاربية تكون الهوية محورها الرئيسي، ولكنها لم تصل إلى مستوى الاستفاقة التي تشهدها اليوم الساحة الثقافية المغاربية التي أصبحت لها حرية أكبر في تناول موضوعة الهوية عبر نصوصها المختلفة وبموضوعية بعيدة عن التزلف. خذ لك على سبيل المثال رواية "توميديا" لصاحبها "طارق بكاري"؛ وهي رواية معاصرة اختلفت فيها الرؤية بشكل كبير عن النصوص السابقة عليها في طرحها لقضية الهوية في المغرب العربي، فمن خلال نصّ روايته المذكور سلفا يطرح "بكاري" سؤالا مهماً: من أنا؟ عبر شخصية مراد/أوداد بطل رواية "توميديا"

الذي يعيش حالة من التشظي الهويّاتي، فهو الأمازيغي العربي، المنتسب بالثقافة الفرنسية، نموذج الإنسان المغاربي الذي يعاني أزمة التموّج في الخارطة العالمية. ويأتي التكوين اللامتناس في شخصية مراد المضطربة ليؤكد مرّة أخرى على هاجس الأصول والانتماء الذي بات اليوم يشكّل شاعلا كبيرا للدراسات الثقافية والأدبية في شمال إفريقيا، مثلما هو الحال في الرواية قيد الدراسة التي سعت بدورها إلى تقديم رؤية خاصّة بصاحبها لإشكالية الهوية في المغرب العربي.

وسنحاول فيما سيأتي أن نبث في كفيات إسهام رواية "نوميديا" في إثارة قضايا ثقافية وعرقية مهمّة من قبيل الأصول العرقية لسكان شمال إفريقيا، ومن ثمّ القراءات التي يقدّمها صاحبها لبعض مكوّنات الثقافة في المغرب العربي كاللغة (حقيقة اللغة الأمازيغية)، التاريخ والجغرافيا (نوميديا)، المؤثرات الخارجية (الثقافة الفرنسية والانتماء العربي) وغيرها من القضايا المهمّة.

2. تشخيص الحالة المرضية:

أوداد أو مراد وجهان لخيبة واحدة، شخصية إشكالية بحق، وحالة مرضيّة خاصّة تعاني من التشنّت وفقدان التوازن النفسي الذي أدخلها عيادة بن هاشم للأمراض النفسيّة.

هذه الشخصية القلقة التي حرمت حليب الأم لا تتفكّ تطرح الأسئلة حول هويّتها وانتماؤها علّها تظفر بأجوبة تسدّ ذلك الفراغ الرهيب الذي خلفه غياب الأم، وتلمم أجزاءها المتشظية. يقول مراد يصف طفولته: "وكان أوداد (أناي الطفل) يكبر كحبة تشقّ الأرض، وكانت أسئلته هي الأخرى تكبر معه"².

ليس مراد في رأينا غير نموذج روائي آخر يحكي حالة إنسان شمال إفريقيا المسكون بأسئلة الهوية، تم استحضاره إلى فضاء النصّ الروائي، وتمتّين أدواته

وتقنياته لإعادة بعث قضية الهوية الجماعية لسكان الشمال الإفريقي بأسفلتها وإشكالاتها الشائكة، أمام تكرار حالة الفشل في الوصول إلى أجوبة مرضية ومقنعة. ولما كانت المستويات التي يمكن النظر من خلالها إلى هوية المرء أو حتى الجماعة البشرية كثيرة، فإن النص الذي بين أيدينا عالج بدوره قضايا عديدة محور دورانها مراد، من ذلك العلاقة بالأرض، أو بهذا الفضاء الجغرافي الممتد على طول الشريط الساحلي للبحر الأبيض المتوسط الذي تسمى به سكانه، فعبارة الأمازيغية ذات مضمون ترابي و "دولة أمازيغية معناها دولة تنتمي جغرافيا وترابيا إلى شمال إفريقيا، أي أرض تامازغا"³.

3. العلاقة بالجغرافيا:

لا يعرف مراد عن أصله غير انتمائه إلى قرية إغرم الأمازيغية حيث مسقط رأسه: "لنقل إنني مثلك وجدت نفسي ها هنا، ولم يكن لي اسم محدد وثابت، لكن الأغلبية الساحقة من أهل القرية كانوا يسمّونني أوداد، لأنهم فهموا مبكرا العلاقة الخفية بيني وبين الجبل"⁴. ثمة قضية بخصوص هذه العلاقة الخفية التي تجمع مراد الوعل بالجبل، فالمعروف حاليا أن الأغلبية الساحقة من سكان الأمازيغ الذين لا يزالون محافظين على لغتهم يتمركزون إما في الجبال أو حتى في الواحات، وهي المناطق التي وجد التعريب صعوبة في الوصول إليها، والواضح أن تسمية مراد بالوعل لم تكن اعتباطية، وإنما تمّ انتقاؤها للمماثلة بين الوعول والأمازيغ في علاقتهم بالجبال، وربما أراد المؤلف بهذا الفعل أن يشير إلى تمركز السكان الأصليين للمغرب العربي في الجبال، وبالتالي تمييزهم عن بقية العناصر الوافدة من الخارج.

في إغرم القرية الجبلية ولد الوعل أوداد واكتسب اسمه الأمازيغي، وكوّن لنفسه علاقة خاصة بالجغرافيا، وكلّ ما يميّزها من الطبيعة حيث نبات أزيز، والبيوت

الأمازيغية بزرکشاتھا وألوانھا المختلفة، وبأعراسھا الصاخبة، كان أوداد مأخوذا بكل ما في إغرم من سحر المكان.

لكن أهل القرية تنكّروا لهذا الطفل اللقيط الذي لا يُعرف له نسب، وسلّموه لأحد الأشخاص القادمين من المدينة، والذي تبّناه وغير اسمه من أوداد إلى مراد: "قلم تكتف المدينة بتغيير اسمي الجميل الذي أطلقه عليّ أهلك (أوداد)؛ أي الوعل باللغة الأمازيغية، بل خرّبت بمشرطها أوصالي، فصرت مراد، وألصقت بي كنية الرجل الذي تبّناني"⁵.

إن هذا الانتقال في حياة مراد من القرية إلى المدينة، والذي تبعه تغيير على مستوى الاسم من أوداد الأمازيغي إلى مراد العربي، ما هو في رأينا إلا تصوير لمرحلة تاريخية اندمجت فيها القبائل الأمازيغية بالقومية العربية، فمن قرية إغرم بنسبيتها وأنساقها الثقافية الأمازيغية، وحيزها الجغرافي الصغير إلى المدينة الواسعة، هو اندماج القومية الأمازيغية في قومية أوسع هي القومية العربية، هنا بالضبط حيث أصبح لمراد أو إن شئت فقل لإنسان شمال إفريقية ازدواجية الانتماء (الانتماء الأمازيغي والانتماء العربي).

4. تشرب ثقافة الأعيار:

مع رحيل مراد إلى المدينة نلحظ نمو الفعل الروائي تجاه تكتيف حضور الثقافة العربية في تكوينه الشخصي، فبعد تفوّقه الدراسي تخصّص مراد في الأدب العربي، قبل أن يدخل في علاقة غرامية مع نضال الشاعرة التي أدّت دورا كبيرا في إبراز مقوّمات الثقافة العربية، خاصّة بنشاطها السياسي، كما يظهر في تقديم مراد لها: "وأستعيد صورتها القديمة وشفتيها المكتنزتين وغمازيتها إذ تتطلّع إليّ مبتسمة، علاوة على الشال الفلسطيني الذي يفصح انتماءها الأيديولوجي"⁶.

إنّ كل أحاديث مراد مع نضال فيها إبراز للشقّ العربي في تكوين شخصيته
مثملاً يؤكد عليه الشاهد التالي:

"قالت، ونحن عائدون من غربة الجسد:

_أنت آخر الفحول...

ضحكت في سرّي، وقلت مازحاً:

_ولماذا أغفلني الأصمعي في طبقاته؟"⁷.

لكن نضال المستنزفة على حدّ تعبير مراد لم تستطع سدّ مسدّد الـ: "هي"
الغائبة في حياته فانقطعت علاقته بها، وفي أثناء غياب نضال حلّت جوليا الفتاة
الفرنسية محلّ نضال كخبيبة جديدة تضاف إلى قائمة خبيات مراد المتكرّرة.

تعرف مراد على جوليا بعد أن سافر إلى فرنسا مستفيداً من عطلة جامعية
لمدّة سنة، وطلبت منه مساعدتها في بحث سوسيولوجي حول مفهوم الجنس في
الشرق، وهو لا يعلم بأنها اختارته عيّنة لدراستها، وتوثّقت علاقتهما بشكل كبير.

إنّ دخول شخصية جوليا فضاء السرد جاء ليكشف هو الآخر عن التأثير
الثقافي الذي مارسه الثقافة الفرنسية على سكان شمال إفريقيا الذين افتتنوا بها أيّما
افتتان، وهو الأمر الذي يبرزه مراد الذي ما إن يكون في حضرة جوليا إلا ويستحيل
فرنسي اللسان والثقافة معاً، كما في المثال التالي الذي يوضح ولع مراد بالموسيقى
الفرنسية:

"كان صوت لارا فابيان ينطلق من مكان ما، فيريك إدارتي لجسدي:

"Je suis malade"⁸.

هكذا إذن تحوّل مراد/أوداد إلى تكوين لا متجانس، ازدواجية في الاسم،
ولسان يلهج بثلاث لغات، والحقبة أن هذا المعطى الحضاري (اللغة) كان من بين
أهم القضايا التي ثار حولها جدل الهوية في الشمال الإفريقي، وطرح إشكالية اللسان

في المغرب العربي، في لغة المعاملات اليومية من جهة، وكذا الأبجدية التي تعتمد عليها الأمازيغية بين الحروف اللاتينية (الفرنسية)، والحروف العربية، في ظل النقص الذي تعاني منه التيفيناغ.

أخذت هذه القضية أبعادا دينية وسياسية، وكثيرا ما تمّ التعامل معها بطريقة لا تخلو من عصبية زائدة، فالبعض مثلاً يدعو إلى استبدال ثنائية العربية والإسلام بالأمازيغية والإسلام بدعوى أن بقاء اللغة العربية هو ضمان لاستمرار الأخوة الكبرى والوصاية التي تؤيدها القومية العربية تجاه الأمازيغ، كما يظهر في قول "محمد بودهان": "في الحقيقة، بناء الدولة مع ثوابت الأمازيغية والإسلام، فضلا عن أن فيه عودة إلى الهوية الحقّة للمغرب التي هي الهوية الأمازيغية النابعة من الأرض الأمازيغية، والتي ينبغي أن تكون هي هوية الدولة بهذه الأرض الأمازيغية، فإنه يمثل عودة إلى الإسلام الحقّ، وذلك بتخليصه من رواسب الجاهلية المرتبطة بالعروبة العرقية ذات المحتوى العنصري والشركي المنافي لتعاليم الإسلام"⁹.

5. محاولة لاسترداد الذات:

بعد ربح من الزمن قضاء مراد في منفاه القسري نصحه طبيبه بن هاشم بالعودة إلى إغرم علّه يشفى من مرضه، وهو ما كان حيث وجد مراد في فندق معروض للبيع في إغرم سببا يجمعه مرّة أخرى بهذه القرية التي يحبّها.

لكن عودة مراد كانت بصفة الغريب مثلما يطلق على نفسه، فهو يحاول جاهدا التقرّس في وجوه أهل القرية علّهم يتعرّفون على الطفل أوداد الذي أضاعوه دون أن يكون له ذلك: "منازل إغرم كأهلها لا تتذكّرني، ولا تحاول حتى أن تفعل. مرّ الغريب من هنا، وفي لحظة ضعف سحب ظلّه خلفه وغاب..."¹⁰.

تغرّب مراد فعلا عن إغرم ليس بغيا به الطويل، ولكن في شخصيته التي لا تشبه أهل إغرم الحقيقيين الذين لا يتقنون العربية ولا الفرنسية، أهل الأصل

الأمازيغي الصافي الذي يعرف هويته، فمراد الذي غادر قريته واحتكّ بغيره أصبح جملة من الإمكانيات المختلفة المعيبة عليه مع أنه لا يد له في هذا التنوع الذي يطبعه، "فنحن مسرح لأطياف وشخوص أو لأصوات ولغات أو لقوى وآليات تعمل من ورائنا وتتكلم عبرنا، أو تفلت من سيطرتنا وتتعارض مع مشيئتنا"¹¹.

لكن مراد حاول استرداد نفسه، عبر محاولة التأقلم من جديد مع أجواء إغرم ونمط المعيشة فيها أين نراه يطلب من حميد الخادم في الفندق أن يحضّر له فطورا أمازيغيا قائلا: "من فضلك أريد فطورا أمازيغيا أصيلا"¹².

ولا يتوقف شغف مراد وحبّه لكل ما هو أمازيغي عند حدود الأطعمة بل يتجاوزه إلى أمور أخرى كالموسيقى مثلا، مثلما يظهر في قوله: "قفزت بعدها إلى حقيبتي وأخذت بعض الأقراص المدمجة، وانتقيت واحدا جمعت فيه بعض الأغاني الأمازيغية"¹³.

عودة مراد إلى إغرم، أو محاولة العودة إلى الأصل الأمازيغي، تذكرنا بما يحدث اليوم من محاولات تجديد القومية الأمازيغية وإعادتها إلى الواجهة عبر المطالبة بترسيم لغتها في المدارس، وغيرها من الأمور التي لها أسبابها الكثيرة، لعل أبرزها التراجع الرهيب للعرب على مستوى التأثير في العالم، فكأنّ هذا الانتماء العربي بات محرجا للبعض !!

6. الذات أمام مفترق طرق:

حين عاد مراد إلى قريته إغرم صحب معه جوليا لتونس وحدته في هذه القرية التي أصبح يحسّ نفسه غريبا عنها، لكنه لم يكن يتوقّع عودة نضال للظهور في حياته مرّة ثانية، وهي التي عاودها الشوق والحنين إلى أيام ظهر المهرّاز مع رفيق نضالها مراد فسألت عنه وأرشدوها إلى قرية إغرم، ليجد مراد نفسه متورّطا بين نضال العربية وجوليا الفرنسية، ولأنّ أبعاد الشخصية المركزية لا تكتمل إلا بوجود بعد

أمازيغي، كان لابد من وجود طرف ثالث غير قرية إغرم ممثلاً للأمازيغ، وهنا ظهرت على الساحة نوميديا بحصانها الأسود، وحضورها الأسطوري الذي أيقض أوداد من غفوته.

نوميديا هذه الملكة الأمازيغية التي بُعثت من مرقدتها تترك وتخبو مثل حلم جميل يراود يقظة أوداد، التقاها وهو سائر في شعاب جبال قرية إغرم، وسرقت لبه منذ الوهلة الأولى التي سقطت فيها العين على العين.

وحدها نوميديا من بين جميع النساء في حياة مراد لم يفهم إن كانت حقيقة أم أنها إحدى هلوساته التي أورها له المرض: "أقبلت نوميديا كأنها السعادة، فعاودني السؤال، أيعقل أن هذه الجميلة الخرساء حقيقة؟"¹⁴.

ليس من الصعب الكشف عن حقيقة نوميديا ودلالاتها، إذ هي تاريخ الأرض، وتاريخ سكانها، وربما يعود سبب انتقاء الملكة الأمازيغية الأقل من بين جملة حوادث تاريخية أمازيغية لتكون حلماً جميلاً يراود مراد إلى كونها تقريباً الملكة الأمازيغية الوحيدة التي استطاعت لم شمل سكان شمال إفريقية، وإن بسلطة خارجية رومانية، ولسان لاتيني، فكأنما نوميديا هي حلم بقيام قومية أمازيغية موحدة، ويمكن إثبات الطابع التاريخي الذي تؤديه نوميديا في نص الرواية من خلال القول التالي: "أحسست أن الزمن يتبدد فجأة، وأنني غير حقيقي أو أنها كذلك غير حقيقية، بمعنى أنني أمامها ألتفت إليّ باندهاش كأنني أكتشف نفسي أو أعيد بناء تاريخي"¹⁵.

الآن مراد في قرية إغرم أصبح أمام ثلاثة أبعاد هوياتية انخرط فيها وأسهمت في صنع شخصيته، وهي: البعد العربي (نضال)، البعد الفرنسي (جوليا)، البعد الأمازيغي (نوميديا)، فكيف يجد نفسه أمام هذه المعضلة؟

1.6 البعد العربي:

يروى مراد يوم وافقت نضال على ارتباطها العاطفي به، كيف أنه أجابها على ميثاق الحب الذي أقرته، فيقول:

"وأجبت، أذكر جيداً:
_ أنا وأنت إلى الأبد.

وأيضاً أذكر أنني سخرت في سرّي من كلمة الأبد من هذا النفاق العاطفي الذي طالما ورّطت نفسي فيه"¹⁶.

إنّ فمراد الذي كره اسمه العربي، لم يستطع أن يحبّ نضال كما كان وربما سبب هذا أنها باتت متزوجة من رجل آخر، فهل هذا يعني أنه لا ينتمي إليها؟ زيادة على ذلك فإن مراد يصف نضال بالمستنزفة، وأغلب الظن أن هذا يعني أن الثقافة العربية في نظره باحت بكل أسرارها، وقالت كل ما في جعبتها في تراثها؛ أي في علاقتها السابقة، ولكنها بعد ذلك لم تستطع أن تغادر تراثها إلى فعل إنتاج جديد.

2.6 البعد الفرنسي:

حتى حدود الفصل الأخير من نصّ الرواية كان مراد متذبذباً وغير دقيق في تحديد العلاقة التي تجمعهم بجوليا، فهو أحياناً يبدو معجباً بها حدّ التماهي معها، وأحياناً أخرى يصف علاقته بها بالنفاق العاطفي وهو نفس ما حدّث به مخبراً عنه وعن نضال، ويقول مراد واصفاً إحدى جلساته الحميمية مع جوليا: "وتواعدنا معاً في قمة الفرع العابر على الحبّ الأبدي، وكنت أضحك في سرّي على هذا النفاق العاطفي الذي لم أتخلص منه رغم أنه كلفني غالياً"¹⁷.

لكن جوليا أخفت عن مراد حقيقتها في كونها متزوجة أولاً وهذا يعني انتماءها لرجل آخر، وثانياً في كونها روائية جاءت خصيصاً لتكتب عنه هو الرجل الشرقي، لذلك اعتبرها مراد خائنة، والحقيقة أن فعل الخيانة ليس إخفاءها حقيقتها، وإنما هو التصرّو المغلوط الذي تحمله عن هذا الشرقي بدليل اعترافها "كاتبة شابّة كنتها،

ولكنني قبلها كنت طفلة، وكجميع أطفال أوروبا كانت تشدّ ذهني تلك الحكايات الكثيرة التي تصرّ على كون الغرب سرّة الكون، وأنه لا يوجد خارجها سوى وحوش بشرية تعيش على الأكل والظلم والجنس¹⁸.

إنّ علاقة مراد بجوليا ليست كعلاقته بنضال، فنضال والثقافة العربية وإن لم يحبّها مراد فإنها كسبت احترامه وهي التي تركت فيه جزءا منها في اسمه: مراد، لكن علاقته بجوليا هي علاقة الأنا بالآخر الغربي الذي طالما سعى إلى تشويه صورته بالتسويق للكثير من الأمور الكاذبة عنه في إعلامه ومدارسه وغيرها من الفضاءات، فماذا كانت ردّة فعل مراد تجاه خيانة جوليا له؟

لم تختلف ردّة فعل مراد عن "مصطفى سعيد" بطل رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للروائي السوداني "الطيب صالح"، وهذا بانتقامه من جوليا، أو من الثقافة الفرنسية التي شوّهت صورته جنسا، إن الرجل تمنى لو يستطيع قتل جوليا جنسا!!، بل ويحسب نفسه وهو أمام جسد جوليا فاتحا قادما ممّا وراء البحار: "وكنّت أتريص بجسدها الأنيق كقرصان مغربي يغازل شواطئ الشمال ويبحث له عن طريدة"¹⁹.

3.6 البعد الأمازيغي:

لا شكّ أن لنوميديا مكانة خاصّة في نفس أوداد، فقد شغفته هذه الفتاة الأمازيغية حبّا، واستطاعت أن تنتزع منه اعترافا بحبّها استعصى على غيرها، مثلما يقول: "أنا أحبها نعم. هذا الاعتراف الذي سعت كل النساء اللواتي عبرن في حياتي إلى انتزاعه، وكنّت منافقا جيّدا حين كنت أحرك به لساني فقط لأسقطهن في شركي"²⁰.

لكن ما بال نوميديا جعلت خرساء؟

لنا لهذا التساؤل تفسيران اثنان؛ الأول وهو أن هذه القومية الأمازيغية لا تحسن التعبير عن نفسها لعدم وجود لغة أمازيغية مكتملة البناء، فكل ما هنالك لهجات متفرقة متناثرة على طول الشمال الإفريقي تختلف نطقا ولفظا، وهو ما يؤكد عليه "غابرييل كامب" في قوله: "والواقع أنه لا توجد اليوم لغة بربرية، بمعنى أن تكون هذه اللغة انعكاسا لجماعة بشرية واعية بوحدتها، كما لا يوجد شعب بربري، وأخرى أن يكون وجود لعرق بربري. وإن جميع المختصين لمتفقون حول هذه الجوانب السالبة"²¹.

وبناء على ما سبق فإن نوميديا تحتاج إلى فرق بأكملها من شتى بلدان الشمال الإفريقي ليرموا لها لغتها ويوحدوها حتى يتسنى لها التعبير عن ذاتها. ثاني الاحتمالات ولعلّه أقربها أن التاريخ الأمازيغي غامض لم يفصح عن الحقائق المتعلقة به، فالمكتبة الأمازيغية _وهذه حقيقة لا يجب أن ننكرها_ فقيرة جدا مقارنة بنظيراتها من القوميات الأخرى، وسبب ذلك متأّت من اللغة أيضا حسب القول التالي: "كان البربر حتى الفتح الإسلامي بدون لغة مكتوبة مشتركة، أي أنهم ظلوا حتى القرن الثامن الميلادي بدون تراث مكتوب بلغتهم أو لغاتهم. وكان أدباؤهم يكتبون بلغات الدول المتسلطة [القديس أوغستين ويوبا الثاني كانوا يكتبون بالإغريقية واللاتينية]"²².

وبضيف "العربي عقون" في سياق القول السابق مدعما له قائلا: "كان هناك دون ريب رجال ونساء متميزون طبعوا عصرهم بأعمال بارزة، ولكن التاريخ الذي كتبه الأجانب لا يحتفظ دائما بالذكرى التي هم أجدر بها"²³.

وإذا ما عدنا إلى نصّ الرواية بحثا عما يزيد في ترجيح الطرح السابق وتعزيزه وجدنا اعترافا لأوداد وهو العاشق المحبّ لنوميديا، يبدي فيه أسفه لقلّة معرفته بنوميديا وتاريخها الأمازيغي حيث يقول: "وتمنيت والوجع يفطر قلبي لو أن إغرم

تتكلم، لو تفصح عن جملة واحدة ولتصمت بعدها للأبد، تمنيت لو أنها تخبرني عن نوميديا شيئا، عن هذه الملكية الأمازيغية الهاربة من كتب تاريخ لم يكتب لها أن تكتب!!²⁴.

7. من البحث عن الهوية إلى التأمل في الهاوية:

اختفت نوميديا فجأة من حياة مراد، وباختفائها انقطعت آخر الأسباب التي تربطه بالحياة، وتحول أمل رؤية المملكة الأمازيغية تُبعث من جديد إلى خيبة أخرى، وأمام عبثية الأقدار، وحالة اللاجدوى لم يعد مراد يتمنى غير الخلاص: "أنا أحوج من أي وقت مضى للخلاص.. الخلاص.. الخلاص"²⁵.

ذات فجر ماطر، خرج الإفريقي الضال الذي لم يعثر له على شطآن يركن إليها بعد أن عبث به عباب الأسئلة، خرج وهو يتحسس خطوات أوداد الطفل الصغير الذي صعد يوما قمة الجبل وأراد أن ينتحر ويتخلص من دبيب الأسئلة في رأسه.

ها هو ذا مراد بعد هذه السنوات التي جرت بينه وبين طفولته عازم على إعادة الكرة مرة ثانية ليقينه بأنه "لا يملك أمامه إلا الاستسلام للفوضى والعبث، بعدما تشبثت به الخيبة مثلما يتشبث طفل صغير بثوب أمه"²⁶.

هي خيبة البحث عن الهوية أوصلت مراد للوقوف أعلى الجبل متأملا الهاوية السحيقة حيث تتحطم الآمال، مستسلما لقدره، لتختتم الرواية على آخر ظهور لمراد في أحداثها على هذا المشهد دون أن تفصح عما إذا كان مراد انتحر فعلا أو أنه اختفى، لا أحد يعلم حتى جوليا التي اكتشفت خسارتها لحربها مع مراد بعدما داهمها شعور بالذنب كتبت عن اختفائه تقول: "لنقل ولو مجازا إن مراد تبخر، اكتظ به الموت فانفجر واستحال إلى كلمات وجمل لن يقوى أي كان على تأليفها دون خيانه"²⁷.

إذن اختفى مراد هو الآخر، ولم يترك لنا في النهاية التي ختم بها قصته ما يوحي بوصوله إلى نتيجة في رحلة بحثه عن هويته، بل ببساطة تتحى جانبا بعدما شاركنا هواجسه وأسئلته تاركا أجوبة مؤجلة.

8. خاتمة:

أسفرت هذه الدراسة التي عُنوانت بـ: "أسئلة الهوية في رواية نوميديا لطارق بكاري" عن جملة من النتائج المهمة التي يمكن أن نجملها فيما يلي:

- رواية "نوميديا" هي نتيجة لهاجس معرفي ثقافي يسكن إنسان الشمال الإفريقي الذي أرهقته أسئلة الهوية والانتماء.
- هناك دعوة ضمنية في نصّ الرواية إلى إحياء الثقافة الأمازيغية التي أخذت مقوماتها في التلاشي والاندثار، وتبرز هذه الدعوة في محاولة أوداد التكيف من جديد مع نمط المعيشة الأمازيغية في الأكل، اللباس، الموسيقى، وأيضا في الاحتجاج الواضح على تغيير لسان أوداد وتحوله عن الأمازيغية إلى العربية والفرنسية.
- رغبة أوداد أو إنسان الشمال الإفريقي في العودة إلى الأصول الأولى اصطدمت بالطبيعة البشرية التي تقرّ التنوع والتغير، وبقلّة الآثار والمصادر التاريخية التي يمكن اعتمادها في رسم وتوضيح معالم هذه الثقافة التي لا نعرف عن تاريخها الشيء الكثير.
- إن النهاية التي ختمت بها الرواية فصول أحداثها بانتحار أوداد أو اختفائه هي تعبير آخر عن الفشل في الوصول إلى إجابات كافية وشفافية عن الأسئلة والانشغالات الهويةّاتية التي تطرحها الدراسات الثقافية في المغرب العربي.

لكن الشيء الأكيد أن هذا الفشل الذي عبّرت عنه رواية "نوميديا" سوف لن يمنع من قيام نصوص أخرى لنفس الغاية التي تأسست من أجلها الرواية، وربما ستزيد هذه النصوص المتوقعة على الأسئلة التي أثارها الروائي "طارق بكاري"، لكن جوهر القضية ليس هنا فربما كانت الطريق التي سلكها مراد خاطئة، فمراد ألقاه التتوّع الموجود في تركيبة شخصيته فرفضه وانقاد لمفاهيم الأصل والعرق الصافي، وأثر السير في الاتجاه المعاكس للطبيعة البشرية التي تقول بالاختلاف والتتوّع.

جميل أن يبحث أوداد وإنسان الشمال الإفريقي عموماً عن نوميديا، والتي ولا شك ستساعده على تعيين أطر تفكيره ومعايير سلوكه داخل نطاق جماعته البشرية، ولكن ذلك يجب أن يتم دون الإيمان بالصفاء ورفض التماهي والتعايش مع الآخر سواء العربي أو الغربي، لأن صفاء العرق أسطورة قديمة لم تقدّم فيما سبق غير الأنظمة الشمولية التي كانت نتائجها وخيمة على البشرية جمعاء.

9. المصادر والمراجع:

¹ _ أليكس ميكشيللي، الهوية، ترجمة: علي وطفة، دار الوسيم، دمشق، ط1، 1993، ص: 7.

² _ طارق بكاري، نوميديا، دار الآداب، بيروت، ط1، 2015، ص: 36.

³ _ محمد بودهان، في الهوية الأمازيغية للمغرب، منشورات تاويزا، المغرب، ط2، 2013، ص: 70.

⁴ _ الرواية، ص: 245-246.

⁵ _ الرواية، ص: 13.

⁶ _ الرواية، ص: 53.

⁷ _ الرواية، ص: 168.

⁸ _ الرواية، ص: 384-385.

⁹ _ محمد بودهان، في الهوية الأمازيغية للمغرب، ص: 71.

¹⁰ _ الرواية، ص: 20.

¹¹ _ علي حرب، خطاب الهوية، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط2، 2008، ص: 205-206.

¹² _ الرّواية، ص: 15.

¹³ _ الرّواية، ص: 85.

¹⁴ _ الرّواية، ص: 244.

¹⁵ _ الرّواية، ص: 232.

¹⁶ _ الرّواية، ص: 54.

¹⁷ _ الرّواية، ص: 16.

¹⁸ _ الرّواية، ص: 420.

¹⁹ _ الرّواية، ص: 396.

²⁰ _ الرّواية، ص: 294.

²¹ _ غابرييل كامب، البرر-ذاكرة وهوية، ترجمة: عبد الرحيم حزل، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د.ط، 2014، ص: 44-45.

²² _ عزّالدين المناصرة، المسألة الأمازيغية في الجزائر والمغرب-إشكالية التعددية اللغوية، دار الشروق، د.ط، د.ت، ص: 59.

²³ _ العربي عقّون، الأمازيغ عبر التاريخ-نظرة موجزة في الأصول والهوية، التّنوّحي للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 2010، ص: 13.

²⁴ _ الرّواية، ص: 409.

²⁵ _ الرّواية، ص: 343.

²⁶ _ الرّواية، ص: 404.

²⁷ _ الرّواية، ص: 418.